حقيقة العولمة و تأثيرها على الثقافات المحلية

ا:توفيق بن بابا علي

كلية الحقوق

جامعة المدية

Résumé

la mondialisation peut être, de prime abord, considérée comme un phénomène ayant un effet négatif sur les pays sous développés tant au niveau politique, économique que culturel. Mais ce principe peut se révéler, dans certaines situations, positif à l'égard de certaines communautés, car la mondialisation peut stimuler les cultures locales vers la concurrence locale et le développement, particulièrement lorsqu'il s'agit de culture locale positive et authentique .

Par ailleurs, il apparaît, sous un autre angle et dans le même contexte, que certains régimes autoritaires exagèrent souvent et délibérément les risques de la mondialisation pour couvrir leurs lacunes et leurs défauts vis-à-vis de leurs peuples en face de personnes en décrivant leurs comportements négatifs comme étant des effets de la mondialisation

ملخص

تعتبر العولمة مبدئيا ظاهرة سلبية على الدول المتخلفة،تؤثر في سياساتها واقتصادياتها ثقافاتها،إلاّ أن هذا المبدأ قد ينعكس في بعض المواقف،إذ قد تصبح هذه الظاهرة إيجابية على بعض المجتمعات ،حيث قد يحفّز المد العولمي الثقافات المحلية على المنافسة والتطور إلى الأمام،خاصة إذا كانت هذه الثقافات المحلية إيجابية وأصيلة

كما أشير من زاوية أخرى في نفس السياق إلى أن بعض الأنظمة السلطوية تتعمّد التهويل كثيرا من مخاطر العولمة لتغطية ثغراتها و عيوبها أمام شعوبها،فتصف كلّ تصرفاتها السلبية على أنها من تأثيرات العولمة.

مقدمـة:

نعرض من خلال هذه الأسطر بعض الإشارات الاصطلاحية حول الثقافة والعولمة والعلاقات المبدئية بينها، والتي نراها كمدخل نظري يتوجب المرور به قبل طرح الإشكالية الأساسية التي ضمّنتها أفكاري الخاصة حول حقيقة العولمة بصفة عامة، وجدلية العولمة والثقافات المحلية بصفة خاصة، فحاولت أن يكون طرحي حول هذه الأفكار مختصرا ومباشرا وموجها نحو المستقبلين حتى يبادلونني النقاش حول ما أتصوره كرأي خاص في هذا الموضوع، كما أنني لا أدّعي أن الطرح الذي أتيت به صائبا وقويا بقدر ما أنتظر من خلاله الإثراء والتوجيه من طرف الزملاء

المتخصصين والمتتبعين لهذا الموضوع، وهذا كله في سبيل البحث عن الحقيقة بين المثقفين الجامعيين داخل صرح الجامعة الجزائرية و من خلال هذه الورقات البحثية التي نعتبرها متنفسا لنا لإبداء الرأي، وكلي ثقة في أن هناك من يستقبله ويفهمه ويناقشه، ويكون هذا العرض من خلال النقاط المذكورة أدناه، وذلك لمحاولة الإجابة على الإشكالية التالية:ما هو المفهوم الحقيقي والواقعي للعولمة؟وما مدى تأثيره السلبي والإيجابي على الثقافات المحلية ؟

بناء عليه، سأحاول الإجابة على الإشكالية المذكورة أعلاه من خلال النقاط التالية :

1- مفهوم العولمة والثقافة والعلاقة بينهما.
2- الجانب السلبي للعولمة.
3- التأثير الإيجابي للعولمة على الثقافات المحلية.
4- الموقف السياسي للأنظمة السلطوية من العولمة الثقافية.

1- مفهوم العولمة والثقافة والعلاقة بينهما:

العولمة هي جعل ظاهرة غريبة عن مجتمع ما شائعة ومؤثرة فيه، أي جلب ظاهرة إلى هذا المجتمع من خارجه وتقبلها واندماجها فيه طبيعيا كما يقال مجازا على سبيل المثال عن المجتمعات التي تفرض عليها الثقافة الأمريكية "بالأمركة" أو التي تفرض عليها الثقافة الفرنسية "بالفرنسة"، وبتعبير أكثر اصطلاحية، العولمة هي جعل ظاهرة ثقافية أو سياسية أو اقتصادية تنشأ في أحد المجتمعات البشرية كظاهرة عامة في جميع أنحاء العالم ينبني عليها تجانس وتواصل إنساني شامل في العلاقات البشرية(1)، ومن خلال ذلك تتوحد الهوية الثقافية والسياسية والاقتصادية في شكل عالمي، فتنتقل المواطنة من حيزها المحلي الضيق إلى مستوى عالمي أوسع.

العولمة هي شبكة العلاقات التي تتطور في شكل تعاظم قوة عدد من الدول على حساب غيرها وإعادة توزيع الأدوار فيما بينها، وهذا النظام يتخذ الشكل الهرمي، حيث هناك الدولة القائدة التي تملك مفاتيح تشغيل النظام، وهناك القوى الوسيطة التي تخدم استراتيجية الدولة القائدة مقابل بعض الامتيازات، وهناك الدول الضعيفة التي لا تعدو أن تكون رعايا للنظام العالمي(2)، وقد بدأ هذا النظام الجديد يتجلى خاصة بعد انهيار الشيوعية ودول أوربا الشرقية وانفراد الولايات المتحدة الأمريكية بزعامة العالم، والتي أصبحت بذلك تمثل الدولة القائد، وجعلت من دول أوربا الغربية قوى وسيطة ومن دول العالم الثالث رعايا لهذا النظام العولمي الجديد.

أمّا مفهوم الثقافة، فهي ذلك النتاج المادي والمعنوي الذي يحققه الإنسان في كل مكان وزمان، فهي كل المجهودات التي يبذلها شعب معين في مجال الفكر ليكتب ويبرر ويخلد الأعمال التي تشكل أساسه وسر بقائه، ولعل ذلك ما ينطبق مع مقولة أن شعب بدون ثقافة شعب ميت(3)، فهي سرّ بقاء الشعوب والكيانات المحلية مستقلة وممتدة في التاريخ والمكان، ولذلك كان الاستعمار وما يزال يضرب أول ما يضرب ثقافات الشعوب المراد استعمارها.

للإشارة لا يوجد في المجتمع اقتصاد دون ثقافة وإدارة سياسية، أو سياسة دون علاقات اقتصادية وثقافية أو ثقافة دون اقتصاد وسياسة، ومنه فإن عولمة أحد هذه المكونات يتضمن عولمة الأشكال الثلاثة مجتمعة، فهناك ترابط طبيعي فيما بين الاقتصاد والسياسة والثقافة على أن تكون هذه الأخيرة هي البنية التحتية التي تتأثر أولا وتؤثر ثانيا في البقية إذا ما طالتها العولمة وامتداداتها، فاكتساب المجتمعات للثقافة اللبرالية يعبّد الطريق نحو عولمة الاقتصاد والسياسة كبنى فوقية.

2- الجانب السلبي للعولمة الثقافية:

يرى دعاة العولمة أن المؤسسات السياسية، وخاصة الدولية منها تستطيع تغيير تفكير الإنسان السياسي والثقافي المرتبط بالعالمية والدولية أكثر من المحلية والقومية، ومنه فإنه سوف يتجلى أن كل شيء قومي طالح ورديء، وكل ما هو عالمي صالح وجيد(4)، بمعنى الموضة العالمية التي تكتسح المجتمعات في تفكيرهم و سلوكاتهم وسبل عيشهم، على أن كل من يخالفها من دعاة المحلية أو المحافظة أو غيرهم يوصف بالرجعية والتخلف.

وعلى العكس من هذا الادعاء الأحادي الجانب، لا يوجد أي مؤشر في الوقت الحالي يدل على ضعف أو تناقص القومية المحلية الغربية الرائدة، أو ضعف الشعور القومي لدى شعوبها، بل هناك دائما حماس وسعي نحو التعاظم الذاتي القومي(5)،ولعل هذا يعني مباشرة أن هذه القوميات بقدر ما تحافظ على محليتها بقدر ما نجدها هي الداعية للعولمة وإتباع موضتها التي تتمسك بها وتريد أن تغرسها في ثقافات شعوب العالم من باب الهيمنة وفرض الذات ونبذ ذوات الآخرين، من هذا المنطلق يرى "روجه غارودي" أن النهضة الغربية الحديثة لم تكن مجرد حركة ثقافية، بل كانت مولدا مزدوجا للرأسمالية والاستعمار، وقد وصلت إلى الهرم بعد أن أتلفت وأزالت حضارات وثقافات أعلى شأنا من حضارتها، خاصة في علاقة الإنسان بالطبيعة والمجتمع والأمور الدينية والإلهية، كما يرى غارودي من خلال تجربته في الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية للغرب والشرق، أن الحياة الكونية السليمة تكمن في إعادة بناء كل شيء في هذه الحضارة المهيمنة وفق أسس صحيحة وذلك باستنطاق ثقافات الشعوب جميعا والاستفادة منها سواء في أمريكا اللاتينية أو إفريقيا أو آسيا(6).

من مؤشرات سلبية عولمة الثقافات الرائدة بروز عدة نداءات وتحركات داخلية وخارجية مناوئة لها، على غرار وجود تيارات فكرية مضادة مثل مواقف "توام تشوسكي" الفيلسوف الأمريكي الشهير الذي لقب "بالاشتراكي اللبرالي" مجازا بسبب معاداته للعولمة اللبرالية، وكذلك رفض المثقفين والشعبيين الفرنسيين "للأمركة" أي العولمة باعتبارها تهدد الوجود الفرانكفوني، دون أن ننسى معارضة العولمة من الناحية الثقافية من طرف بعض الدول كسويسرا والنمسا التي ترى في ثقافتها المحلية أساس وجودها، وذلك ما أدى إلى بروز عدة صحف ومجلات متخصصة تصب في هذا السياق مثلا ما تحويه وتدافع عنه جريدة "لوموند دبلوماتيك" الفرنسية.

كما هناك معارضة دينية مسيحية كاثوليكية بطريقة متشددة ومقاومة للعولمة، تدعو إلى أنسنة العولمة أكثر وذلك من خلال ما تقوم به هذه الحركات من عقد مؤتمرات دولية تصب في هذا السياق.

نفس المنطق ينطبق على المعارضة الإسلامية التي تتجسد في منظمات أصولية متشددة ترفض كل ما هو غريب عن القرآن والسنة متشبعة بانبهارها بتاريخها العربي الإسلامي القديم.

كما توجد معارضة منهجية للعولمة تقودها بقايا التيارات اليسارية المعادية للرأسمالية بشكل عام، وهي تحمل عدة شعارات تعبر من خلالها على رفضها للعولمة اللبرالية مثل دعوات التضامن مع اللاجئين، والحفاظ على التنوع البيئي والثقافي والتضامن الاجتماعي، وحماية حقوق العمل والمساواة..إلخ(7).

3- التأثير الإيجابي للعولمة على الثقافات المحلية:

أضمّن هذا العنصر إشكالية أكثر مما هو شرح واسترسال في إيجابيات العولمة على الثقافات المحلية، فبمجرد سماع هذا العنوان يتساءل المستقبل له بتعجب عن إمكانية وجود إيجابيات للعولمة، ولعل هذه هي الإشكالية التي أطرحها وأتمنى التوسع فيها لاحقا في مقامات أخرى بعد مناقشتها مع أطراف متخصصة في الموضوع.

أرى من منطلق فكري أصدّقه كثيرا وهو الجدل العلمي أن الصراع الحاصل في تضاد العولمة كمقومات ثقافية عالمية مع الثقافات المحلية والإقليمية من شأنه أن يقوي هذه الأخيرة ويجعلها أكثر إيمانا بذاتها، كما من شأنه أن يجعلها تندثر أو على الأقل تذوب في الثقافة العالمية المفروضة من طرف دول القوة، وعليه أرى أن الثقافات القومية المحلية الحقيقية سوف تصمد وتبرز وتتقوى من خلال هذا الصراع، أمّا الثقافات القومية التافهة أو الضعيفة فسوف تزول، وهذا أمر عادي لا ظلم فيه، فإذا لم تستطع الدفاع عن نفسها وفق هذا المنطق الجدلي، فليست أهلا لأن تبقى وتتواصل.

4- الموقف السياسي للأنظمة السلطوية من العولمة الثقافية:

أطرح إشكالية ثانية في هذا العنصر يخصوص موقف الأنظمة السلطوية التي تمثل بلدان العالم الثالث من العولمة الثقافية؟ هل هي ضدها؟ أم أنها تدافع عنها وتحتضنها؟

أرى أن الأنظمة السلطوية إذا كانت تمتلك شعوبا بثقافات موالية لتكريس حكمها سوف تضاد العولمة وتعاديها، أما إذا كان العكس أي أن ثقافات شعوبها لا تمكّنها من الاستمرار في الحكم، فسوف تتحالف هذه النظم مع العولمة اللبرالية من أجل كسر الثقافات المحلية، ولعل هذا ما هو حاصل في بلدان العالم الثالث في يومنا هذا، حيث نجد النظم السلطوية تتواطأ مع الثقافات العالمية الغربية للقضاء على كل ما هو محلي سرا وعلنا، ولعل أكثر ما لفت انتباهي في هذا الاتجاه هو تهرب هذه الأنظمة من مسؤولياتها السياسية والاقتصادية والثقافية وتبريرها لأخطائها و انفلاتاتها أمام القضايا الوطنية لشعوبها بالمد العولمي، وأن كل سلبية تقع في بلدانهم ليست من مسؤولية هذه النظم بل هي مخلّفات للعولمة.

ولعل هذه حجج واهية تنبّه لها المثقف في دول العالم الثالث وعرف أن أنظمته تحالفت مع العولمة اللبرالية فأصبحت ثقافته بين المطرقة والسندان،مما أنتج ازدواجية ثقافية نوعيا بين فئتين من المثقفين،فئة متمسكة بذاتيتها و أصالتها وانتمائها المحلي،وفئة أخرى عضوية تابعة لأنظمتها السلطوية، تخدمها وتخدم الفكر العولمي في نفس الوقت،هذه الازدواجية خلقت صراعا ثقافيا و أحيانا سياسيا بين النوعين،و لعلّ هذا الصراع هو ميكنزم إيجابي في حدّ ذاته من شأنه أن يحدد قيم أي مجتمع لصالح أحد الفئتين المتصارعتين .

خاتمة:

من خلال هذا العرض الموجز، والطرح الشخصي حول مفهومي لجدلية العولمة والثقافة، أرى أن تأثيراتها السلبية ليست بالخطورة الكبيرة التي تتداولها بعض وسائل الإعلام الحكومية والأوساط المثقفة العضوية والنظم السياسية السلطوية، بل أرى أن في ذلك جانب كبير من الخيال والتغليط المقصود من أطراف معينة لتبرّر تصرفاتها السلبية أمام شعوبها،وعليه يجب علينا أن نعي ذواتنا ونعمل على تقويتها ثقافيا وسياسيا واقتصاديا ولا ننتكس أمام هذه الادعاءات الهدامة الدافعة إلى انهزام الثقافة المحلية أمام المدّ العولمي، أي بقدر ما نتقي سلبيات العولمة ومخاطرها يجب أن نعي مصادرها ومدى تأثيرها الحقيقي على الثقافات المحلية ،بل ويجب في الكثير من الأحيان الاستفادة منها باتخاذ ردة فعل إيجابية توقظ هويتنا المحلية و تنزع بها نحو التطوّر وتجعلها قادرة على منافسة كلّ ما هو دخيل ،فالخطر الحقيقي ليس فقط في التأثيرات السلبية للعولمة على ثقافتنا المحلية بل هو كذلك في ضعفنا الذاتي وجهلنا واستصغارنا لقيمنا

المحلية،ولعلّ خير دليل تاريخي على هذا الطرح هو ما وصلت إليه بعض الثقافات المحلية من تطوّر و ازدهار،لأنها عادت إلى أصولها و انطلقت منها في بناء مستقبلها كما هو حال النموذج الآسيوي والتركي والإيراني .

الهوامش :

1/–أحمد حسين عنان، (جدلية العولمة). ط1، دمشق، سوريا: دار الديوان، 2006، ص11، ص198–199.

2/– فاروق عبد الله العمر، (دول القوة ودول الضعف). ط1، القاهرة، مصر: المكتبة الأكاديمية، 2005، ص156.

3/–محمد العربي الزبيري، (الغزو الثقافي في الجزائر 62–1982). الجزائر: المؤسسة الجزائرية للدباغة، 1986، ص17.

4/–محمد قربان، (المنهجية والسياسية). بيروت، لبنان: دار الطليعة للطباعة والنشر، 1969، ص319.

5/– توم بوتومور، (علم الاجتماع السياسي). ترجمة وميض نضمي. ط1، بيروت، لبنان: دار الطليعة 1982، ص169.

6/– روجه غارودي (حوار الحضارات). ترجمة عادل العوا. ط2، بيروت، باريس: منشورات عويدات، 1982، ص288.